الاستشراق عارياً

هادي العلوي

استمرت العلاقة السلطية بين الاستشراق والشرق (المتروبول والمستعمرة) على امتداد حقبة مديدة بفضل المنحى الاستزلامي للاول والضراعة الاستسلامية للثاني، بحيث تكيف الوعي الشرقي للمهام التقبلية التي فرضتها عليه سلطة الغرب المتفوق سياسياً واقتصادياً، وتبعاً لذلك عقلياً وحضارياً. ولم يكن ميسوراً لهذه العلاقة ان تنفصم، أو تتغير، لصالح المغلوب مادام هذا التفوق جاهزاً. وعلى الرغم من انحسار الاستعمار المباشر واستقلال شعوب الشرق في كيانات ذات سيادة قانونية، فإن التفوق الغربي بقي يمارس ايجابيته من خلال الاستعمار الجديد، الذي استبدل بالاحتلال مؤسسات سياسية مستقلة، ولكن مرهونة بمصالحه العليا، المتراوحة بين يوميات التبادل التجاري الشائك، وبين السر الخفي الكامن في اعماق امبراطورية من طراز جديد، ترث وتستحضر كل ما خلفته امبراطوريات الماضي القريب والبعيد وتضيف اليه تعزيزات مستحدثة تستقيها من جموح الذهن التقني المنفلت لانسان اليوم.

عاش الغربي منذ ثورته البرجوازية ـ الصناعية مستشرقاً في تعامله مع الشرق. وعاش الشرقي مستشرقاً بالغربي الذي صنع تاريخه بيديه بعد أن ألغى التاريخ المنتج سابقاً بايدي الشرقيين أنفسهم. وبرغم اللحن المنهجي المستّفن للكتابة الاستشراقية فان المؤرخ الغربي لم يجد على الدوام ما يمنعه من الاصحار بصناعته القاصدة هذه. ان احدث كتاب استشراقي يصدر عن مؤرخ بريطاني من الجيل الحاضر يقول، مثلاً، في حديثه عن البحرين، إن تاريخها المكتوب لا يمتد الى اكثر من خمسمائة عام، أي الى وصول اول اوربي الى تلك الجزر، حيث بدأ تاريخ البحرين المكتوب. أما مئات المصادر المدونة في العصور الاسلامية عن البحرين، واما الاحداث الضخام التي عاشتها البحرين في الجاهلية والاسلام، وأما دولة الفقراء العلمانية التي اقامها القرامطة في البحرين، وما جاورها، واستمرت مائتي عام، حين كانت اوروبا تحكم بالاعدام حرقاً على من يجتهد في تأويل الكتاب المقدس، فهذا كله ليس من التاريخ، مادام لم يصنع بايد أوروبية. (انظر ج. بيبي: Looking For Delmon، ص 46).

ولقد ترتب على الشرقي ان يبقى حيث هو مستشرقاً بالعقل الغربي، ليس فقط بوسائل القهر المؤسساتية المعتادة، بل وعبر قناعات ولدها الشرقي لنفسه مستعيناً بايجابية الباحث الغربي، الذي اعترف له بدور الانثى في التاريخ. وتكاملت على هذا الصعيد جملة مسلمات تبادلها الشرقي مع الغربي في اطار

هذا الشكل من تقسيم العمل. فالعقل الشرقي هو القاصر دوماً، ليس في هذا العصر الرأسمالي العملاق فقط، بل وفي كل عصر. وحياة الشرقي نوافل قابلة للتعطيل في مقابل حياة الغربي المتماهية بذاتيات واجب الوجود. ولغات الشرق بدائية، أو بدوية، أو عجماء، تحتاج، لكي تفصح عن أهلها، الى مكمل، أو بديل، من الغرب يمنحها القدرة على الاداء والحركة. ومن هنا يفقد الشرقي حقه في موارده التي يجب ان تذهب الى الغرب لتشغيل مصانعه نهاراً، ومراقصه ليلاً. والمطلوب من الشرقي مقابل ذلك ان يستعيد مادته الخام مصنوعةً جاهزةً من الغرب الذي يمتلك ليس فقط حق المادة الخام، وإنما ايضاً حق تشكيلها وتحويلها. ولقد كنت أسمع وأنا صبي كيف أن الحكومة المستقلة في بلدي المنتج للنفط كانت تلاحق الاشخاص الذين تأنس فيهم القدرة على الاختراع، بل وكيف اختفى في ظروف غامضة اشخاص تجرأوا على الاختراع فعلاً، وكيف أتلف ما اخترعوه قبل ان يصير جاهزاً بداهية تنزل عليه من مصدر مجهول قد يكون السماء، أو الجن، أو الدولة، فالاختراع تبعاً لهذه العقيدة التي كنت اسمع الاحاديث والحكايات حولها، في الاربعينات، هو مجلبة لسخط القوى الغيبية أو الاجهزة الرسمية التي يمكنها أن تصرع الانسان من حيث يراها، أو لا يراها. ويرتهن هذا بدوره في حالة الانثى التي تخرج عن جنسها فتسترجل في خرق فاضح لنواميس الطبيعة تستحق عليه غضب السماء والدولة معاً.

ولدى البحث عن معيار للاشياء، فان الادب الغربي يزودنا بالمفاتيح المطلوبة. هكذا علمنا اساتذتنا ان نقارن مستخدمين ترميزاً مقلوباً حتى فيما يقول المستشرقون إنه من أخص خصوصياتنا، الشعر مثلاً، حيث يتعين علينا ان نستخدم شاعراً غربياً (بصرف النظر عن زمانه لان الزمان محذوف من ذاكرة المؤرخ الامبريالي) إذا اردنا ان ننقد شاعراً عربياً. وقبل ان تظهر المؤلفات الموسوعية التي ترجمها، مؤخراً، عبد المعين الملوحي من ادب الصين وفيتنام لم تكن تملك أي رصيد من أدب الشرق يصلح للمقارنة او الاستيحاء. أما تاريخ الشرق فيمكن مقايضته لحساب التاريخ الغربي بايسر السبل. وقبل اعوام، احتفلت اوروبا بمرور خمسمائة سنة على اختراع الطباعة دون ان يسأل احد عن مصير سبعمائة سنة اخرى من تاريخ الطباعة في الصين وكوريا.

وليس امام الشرقي، لكي يثبت حضوره في التاريخ ـ ماضيه وراهنه، الا إثبات انتمائه الغربي، في أي منحى من حياته. حين يقول طه حسين، احد مؤسسي الفكر الحديث في العالم العربي، إن الثقافة العربية هي غربية لاشرقية، فإنه يكرس هذه الرغبة الانثوية الدارجة في الحضور التاريخي من خلال الغرب. إن المثقف الشرقي يشعر بالضيق من انتمائه الجغرافي، فلتحديث الصين لابد من الارتماء في الاحضان الدافئة للمتروبول، ولابد من ايصال اللغة الانكليزية، ومن خلال احتفالات استقبال طقوسية مرتبة، الى اعماق الريف الصيني الذي جعلته الثورة الاشتراكية السابقة ينتج من المحاصيل ما يغني مليار نسمة عن استيراد غذائها، دون أن يعرف اي شيء عن رطانة الامريكان. ولكي تنهض مصر فعلى المثقف المصري ترحيلها من خارطة افريقيا العربية الى اوروبا، ولكي تتمدن جمهورية لبنان السياحية فلتكن مقاطعة فرنسية. إن المثقفة التي رأيتها في مطار عربي تضرب صبيها العائد معها من لندن لترغمه على ان يقول Red بدلاً من احمر، انما كانت تزاول هذا اللقاح الوجداني الذي يصبح اليوم هاجساً وجودياً للشخصية العربية المعقمة بالاستشراق. وعلى الشرقي لكي يعرف نفسه ان يستشير مؤلفاً غربياً. ولقد لقي

الكتاب الخرافي لرفائيل باتاي Arab Mind من الرواج بين العرب القارئين للانكليزية ما لم يلقه بين القراء الانكليز أنفسهم.

وهكذا، فالشرق الحديث، كما يقول ادورد سعيد، يشارك في شرقنة نفسه. والباحث العربي المعاصر يتولى بجدارة مهمة المخبر عن السكان الاصليين، اما دوره في البحث فهو قدرته على تدبر المنظومة الاستشراقية وفهمها، واستخدامها بما يتيح له تفوقاً على مواطنيه العاجزين عن الرطانة. ان المع الباحثين العرب من الوسط الاكاديمي التقليدي لا يزيدون على هذا الدور الا قليلاً، فهم تلامذة جامعيون للسير هاملتون جب، وبرنارد لويس، ولويس ماسينيون، وزملائهم، وقد استوعبوا، بطريقة مثيرة للاعجاب، كل الخرافات التي علمتها المنهج الاستشراقي القويم. ففي واحد من ابرز الكتب في تاريخ الاسلام الاقتصادي يردد عبد العزيز الدوري (انظر تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري) نظرية فلهوزن عن الضريبة في الاسلام، ومفادها ان المسلمين الاوائل لم يعرفوا الضريبة، وانما عرفوا الاتاوة حتى اتصلوا بالبيزنطيين فتعلموا منهم مفهوم الضريبة، وقسموها الى جزية وخراج. وفي كتاب لاحق (انظر مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي) الفه بعد صدور كتاب دانيال دينيت (الجزية والاسلام)، والذي دحض فيه نظرية فهلوزن، ردد عبد العزيز الدوري نظرية المستشرق الامريكي، وقال إن العرب عرفوا الضريبة قبل ان يعرفوا البيزنطيين. وعلينا ان ننتظر مستشرقاً ثالثاً يدلي بنظرية ثالثة حتى يعيد التلميذ العربي النظر في هذه المسألة... وليس الدوري، مدّ الله في عمره، الا مثالاً.

□

لاضاءة هذا المنزلق، ولكي يجتذب رسن الموغلين فيه وضع ادورد سعيد هذا الكتاب ـ الحدث. ومع ان كتاباً لا يمكنه، مهما بلغ من اتقان، ان يهدم كل عروش الحديد التي اقامها الاستعمار الثقافي في رؤوس العرب، فان قدرة ادورد سعيد، كما تجلت في هذا الكتاب، ليس ضعيفة التأثير على اي حال. إن عمق التحليل، المستند الى كمية هائلة من المواد، ولغة حية متدفقة، وبالارتهان مع تطلع موثق الى استخراج مدلولات خطيرة خفاة في اغوار البحث المبرمج بالمهارة العالية للاستشراق الغربي، يعطي هذا العمل الفذ قوة تأثيرية مُوجدة. وكتاب «الاستشراق» يكشف ببراعاته العديدة عن الوان التحايل المعرفي التي ابتدعت لتسهيل استعمار الشرق. ويمتلك ادورد سعيد تماسكاً منهجياً تلاءمت فيه براعة التحليل النفسي، التي طغت على استبطانه للنصوص، مع الربط المحكم لظاهرة الاستشراق بميدانه الأصلي: الاستعمار، ولوأنه يسرف احياناً في نَفْسَنَة الوقائع الاستشراقية الى حد أن يسحبها على حدث استعماري ضخم مثل شق قناة السويس، تكون شرياناً للاقتصاد الامبريالي في الشرق. وللاستعمار مرتكساته النفسية بلاشك، لكنها من لواحقه، وليس من مقوماته.

يفتش ادورد سعيد عن الجذور، فيذهب الى داتي وعصره، حيث البحث عن الشرق ملزور بنزعة الامتلاك المتأصلة في الوعي الاوروبي. وتعوز الكاتب هنا الوسائل الصالحة للتعميم، فهذه النزعة الاوروبية قد لا تبلغ تأصلها الا مع الكنيسة الاوروبية بوصفها المعبر الأوفى عن رجعية ثقافية ذات امتداد عدواني. وخارج هذه الدائرة كان الشرق، ممثلاً في الاسلام، لا يزال مؤثراً وايجابياً (في أوساط نخبوية في الغالب، وإن كانت طليعية الدور) على طول مسافات زمنية تتصل بعصر النهضة، حيث تعالت صرخة

القومي الايطالي بلوتارك ضد الثقافة الاسلامية، التي حمل لواءها الرشديون اللاتين، وهواة المعرفة الجديدة، لبضعة قرون خلت.

يأخذ البحث عن الشرق امتداداته المحمومة مع اولى الغزوات الاستعمارية.. هنا فقط، حيث يظهر المستشرق ليؤدي وظيفة «العميل السري داخل الشرق». وخلافاً لمثقفي العصور الوسطى، وعصر النهضة، الذين تقبلوا التلمذة للشرق دونما عقد مسبقة، حيثما امكنهم الافلات من قبضة الكنيسة، يتحدث إدورد سعيد عن سلفستر دي ساسي، أبو الاستشراق الفرنسي، فيبرزه رمزاً مبكراً للتعاون بين المستشرق وجيوش الغزو. لقد شغل دي ساسي منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان يستشار بانتظام في المسائل المتعلقة بالشرق في تلك الوزارة. الا أن جهوده لم تقف عند محض الاستشارة، وإنما تعدتها الى امور اخرى كان فيها المستشرق الكبير ضالعاً في اعمال الغزو. فقد جمع دي ساسي الى وظيفة المستشرق وظيفة المترجم، ذي المكانة العالية، وساهم بوظيفته هذه في توجيه الحملة على الجزائر عام ١٨٣٠، وترجم بيانها الموجه الى الجزائريين. وقبلها، عام ١٨٠٦، كان دي ساسي قد ترجم بيان نابليون الذي أريد به استثارة العصبية الاسلامية ضد الروس الارثذوكس كجزء من حرب الاعلام التي رافقت حملة نابليون الخائبة على روسيا (ص ١٩٦).

وتستمر الثوابت نفسها مع آخر مستشرق فرنسي عظيم، لويس ماسينيون، الذي أمضى شطراً من حياته موظفاً في الوزارة نفسها. ولم يكن إدورد سعيد ليغفل عن مواهب ماسينيون، الذي تحدث عنه دون ان يخفي اندهاشه بروعة الاعمال التي انجزها: لكن هذه المواهب العالية لم تكتب للشرق اكثر مما كتبت لفرنسا والمتروبول الغربي، وهي تنتهي الى جعل الشرق الاسلامي روحانياً، سامياً، قبلياً، ووحدانياً بصورة جذرية، ولا آرياً (ص ٢٧٤)، ويشكل هذا الوصف لمقررات ماسينيون الاسلامية اساساً لتلك الدعوة، التي وجهها موظف الخارجية الفرنسي إلى دولته لكي تقف في وجه الانكليز وتمنعهم من الانفراد بخدمة المسلمين، والدفاع عن ثقافتهم التقليدية، وقاعدتهم الانثروبولوجية الراسخة (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

إن ادورد سعيد يعرف ماسينيون جيداً، وان كان ليبدو قليل الشك في نواياه. ولعل ذلك لافتقاره الى تفاصيل اكثر عن دور هذا الدبلوماسي الفرنسي الذي زار بغداد عام ١٩٠٧، حين كان التنافس قائماً على العراق بين الفرنسيين والبريطانيين، ووضع دراسة في لهجتها العامية، قسمها فيها الى: لهجة الشيعة ولهجة السنة، ولهجة النصارى. وما كان ليخفى على مثله ان اختلاف اللهجات لا علاقة له بالعقيدة الدينية، وان لهجات بغداد موزعة بحسب حاراتها وضواحيها، وليس بحسب طوائفها[1].

ولا يمكن للغة العلم الجميلة، التي عالج بها ماسينيون موضوعاته الاسلامية، ان تخفي سوء الغرض. إن كتاباته الممتعة عن الحلاج لا تزيد في آخر المطاف عن تصوير شخصية قلقة تذهب ضحية الهوس الصوفي، الذي يبدو ماسينيون مولعاً به. وتختفي شخصية الحلاج السياسية كثائر وثيق الصلة بالشيعة الغلاة كان يروم انقلاب الدول كما يصفه ابن النديم. وهو المصير نفسه الذي يلقاه سلمان الفارسي من ماسينيون الذين جعل منه مخلوقاً خرافياً يصلح للعرض في متاحف الفنون. أما الافكار الاجتماعية لسلمان، وأما تجربته في ولاية المدائن فهي من صنع الوضاعين، الذين يضيفون الى الشرق احياناً ما ليس له.

ويمسك ادورد سعيد خيطاً متصلاً بين المبتدأ والمنتهى، الذي يعبر عنه السير هاملتون جب بطريقة

تبدو مفضوحة الى درجة لا يتحملها هذا الاسم اللامع في حاضر الاستشراق. والسير جب مستشرق مخضرم، عايش افول الاستعمار البريطاني، وصعود الاستعمار الامريكي، بحيث ترتب عليه ان ينقل خدماته من بريطانيا الى الولايات المتحدة للعمل، كما ينوه البرت حوراني «ضمن معطيات سياسية» (ص ٢٧٨)، كانت هي اطار عمله في اواخر عصر الاستعمار الآفل، وقد تم ذلك تبعاً لمقتضى الحاجة. وفي تحليلات حرجة لكتابات هاملتون جب يضع ادورد سعيد يده على المحور العنصري الامبريالي الذي ينتظم مصادرات هذا المستشرق الكبير (ص ٢٦٦، ٢٧٨، ٢٨٢). ولا يقوم التطور العاصف في حركة الفكر الغربي المعاصر بأي دور هنا. ان الاستشراق، بتحديد ادورد سعيد، هو في جوهره مذهب سياسي، وهو كطقم من المعتقدات، وكمنهج للتحليل، عاجز بطبعه عن التطور (ص ٣٠٥).

وينفرد الاستشراق الاسلامي بخصوصيته في هذا المنحى، فقد بقي الفرع الاكثر تخلفاً بالنسبة الى مسيرة العلوم الانسانية في الغرب، بل والاكثر تخلفاً حتى بالنسبة لفروع الاستشراق الاخرى (ص ٢٦٥). ويلمح ادورد سعيد الى «تحسن» حالة المستشرقين الذين يعالجون تاريخ الشرق البعيد، الصين مثلاً[٣]، وبقائهم يدورون، بقدر ما يتعلق بالاسلام، في التقاليد الكلاسيكية التي أرساها موظفو الخارجية السابقون. وهو هنا يقارن، وبوعي سياسي متقدم، بين مأزق الاستشراق الاسلامي هذا وبين متطلبات الاستعمار الجديد، حيث ترتب على المستشرق الآن ان يكون دليل صانعي السياسة، ورجال الاعمال (ص ٢٧٧)، ويلاحظ بالتالي ان تنقيح الموروث الاستشراقي الذي بدأ في سياق التطور الذي اصاب العلوم الانسانية لم يشمل الاسلام (ص ٣٠٠). وعلى العكس، فالاستعمار الجديد قد استوعب بنجاح كل هذا الموروث الذي تستخدم مسلماته الشائعة لتثبيت وتوكيد المخطط الامبريالي الدائب للسيطرة على آسيا (ص ٣١٩)، ويفسر ذلك ازدهار الاستشراق الاسلامي في الولايات المتحدة، أم الاستعمار الجديد. وتتأتى ضرورة الاستشراق للسياسة الامريكية من الهيمنة السياسية والاقتصادية التي تحظى بها الولايات المتحدة في الشرق العربي، حيث يواصل الباحث الغربي ذكورته التقليدية المعززة، الى جانب القبول الشرقي، بالضغط الاقتصادي المباشر الذي تسلطه الولايات المتحدة على مدروساتها. واذ يقول ادورد سعيد ان الاستشراق الجديد يحمل في ذاته معالم الخوف الاوروبي العظيم من الاسلام، فهو يفاقم ثوابت الاستشراق الامريكي التي استعصت على التطور، لانها محكومة، في الواقع، بعقدة تاريخية تلك هي الهلع من الشرق الاوسط بوصفه، قبل الاسلام وبعده، النقيض المرشح باستمرار لاوروبا. وبرغم ان الاسلام قد تم تطويعه، في الغالب، للقران بالغرب، جرياً على السنن الطبيعي للاديان في ارتباطها بمراكز القوى الضد ـ انسانية، فإن حدثاً دالاً واحداً كان يكفي، على الدوام، لجعله ليس فقط رديفاً للشيوعية السوفييتية، بل ومدفوعاً الى خط الهجوم الاول الذي يستلزم تغيراً عاماً على المستوى المشهود هذه الايام.

مستنداً الى فهم أوعى للاهمية البالغة للعوامل الاقتصادية، يلفت ادورد سعيد انتباهنا الى ما يسميه «صدمة ايقاظية»، تتمثل في وجود عشرات المؤسسات في الولايات المتحدة لدراسة الشرق العربي والاسلامي، متزامنة مع تركز قاعدة عائدات النفط العربي ـ ناهيك عن التسويق، والبحث، والادارة الصناعية ـ في المتروبول الامريكي ضمن علاقة شائلة يصبح فيها الاخير زبوناً مختاراً لعدد ضئيل جداً من المنتجات (النفط، واليد العاملة الرخيصة) بينما يصبح العرب مستهلكين شديدي التنوع لمقادير هائلة من منتجات الولايات المتحدة المادية، والايديولوجية (٣٢١).

يبلغ الاستشراق هنا ذروة الازمة، الى الحد الذي يمنعه ان يكون شيئاً آخر غير ما عليه منذ الولادة. وادورد سعيد لا يقدم وصفة للانقاذ، فهو عدو تاريخي لما يبدو في نظر الغالبية العظمى من المثقفين العرب مصدر تعليم لا يرقى اليه الشك، إلا حين يخرج عن دهائه فيخاطبهم بلغة خالية من حرارة العلم. ان الاستشراق يسلك عند ادورد سعيد درباً مسدوداً، وإنقاذه هو تدميره. ومن هنا فالحرب على الاستشراق هي جزء من المعركة الجارية ضد آخر الامبراطوريات في التاريخ: الولايات المتحدة. ونحن ندمر الاستشراق بقدر ما ندمر علاقاتنا بتلك الامبراطورية.

إن كتاب ادورد سعيد عمل علمي، مشبوب بعاطفة كاتب حر يحمل في اغترابه القسري هموم وطنه للمصادر. وهو، في عقليته الباحثة، مثال لما يمكن ان يكون عليه مثقف عربي يحسن استخدام معرفته العلمية على نحو منتج، ومؤثر، وخلاق، تبدو معه الكثير من خطوطنا وكلماتنا هوامش فجة. هو اول مبعوث عربي ينفذ الى العالم الضد ليكتب عنه من داخله، ويعريه من هيبته العقلية، ويضعه في مكانه الحقيقي، محتالاً دولياً يتخذ من العلم والتقنية وسيلة ضارية للسحر.

ان ادورد سعيد يتكلم باللغة المنشودة لحركة التحرر العربي، التي يخلطها خطأ بالقومية العربية، حين لا يشكل اغترابه حاجزاً يمنع عضويته فيها. وحري به أن يفهم من زاوية المعسكر الواحد الذي يتسع لاكثر الايديولوجيات تباعداً، مادام يوحده الصراع ضد عدو مشترك هو الامبريالية الغربية. لكن قراءة نقدية ودودة للكتاب ستكون ضرورية لفهم اصوب لمحتوياته يتجاوز به القارىء عثرات المؤلف. ولمؤلف هذا الكتاب الثمين عثرات هي في جلتها ناتج للمنهج، وليس للموقف، أسجلها هنا، مع احتفاظي له بكامل الود، والاعجاب، والتأييد الذي يستحقه كاتب حر، ألمعي، بعيد الغور.

١ـ لمست لدى المؤلف صعوبة في تخطي القيود المنهجية للوسط الاكاديمي الذي ينتمي إليه. ويبدو ذلك واضحاً عندما يحصر ازمة المنهج الاستشراقي في دائرة العلاقة الاستعمارية المتعالية مع الشرق، دون ان يعطي كبير اهتمام لعوامل الخطأ المشترك بين المستشرق والمؤرخ الغربي، بوصفها ناتجاً للوسط الثقافي نفسه. ومع انه لا يلبث ان يضع يده على جرح ناغر حين يصف علم التاريخ الغربي كمنتج للعموميات المضخمة المأخوذه من وقائع جزئية محدودة جداً، فهولا يشعر بحاجة ملحة الى نقد الاتجاه المثالي، البالغ التسطيح، الذي تخضع له دراسة كل التاريخ في الغرب، ذلك الاتجاه الذي يواجهنا اليوم، ليس في اعمال المؤرخين وحدهم، بل وفي الصحافة الغربية التي تمرست في فن التسطيح العلمي للاحداث العالمية، بمستوى من النجاح يجعل قراءها لا يفرقون مثلاً، بين تأميم البلاشفة للارض وبين الاصلاح الزراعي الذي يطبقه الضباط والبلطجية في بعض الدول العربية، وهي في ذلك تستند الى القدر نفسه من التحايل المنهجي الذي سبقها إليه معلمو التاريخ من ابناء جلدتها.

٢ـ وقع ادورد سعيد في العمومية المضخمة حين سحب تقريراته الحصيفة عن الاستشراق على الفيلسوف العالمي كارل ماركس. ومع أن هذا امر متوقع من مفكر لا يشاطر ماركس همومه الطبقية، ولكنه لا يعفينا من مناقشته. قراءة متأنية لماركس، فيما كتبه عن الشرق، تكشف الفاصل الكبير الذي يباعد بينه وبين مواطنيه الخاضعين، بحكم العادة، لمنشئهم الانثروبولوجي الخاص بهم. والقضية هي بلسان من يتكلم كارل ماركس؟ إن فيلسوفاً عظيماً مثل هيغل، ما ان يتناول الشرق حتى يهبط الى صحفي من الدرجة العاشرة. هكذا كان هيغل في حديثه عن الفلسفة الاسلامية، كما هو في اشارته العنصرية الصلعاء الى

اللغة الصينية. ومما يتميز به كارل ماركس، في مقابل هذه الاستشراقية الضاغطة، انه يتكلم بلسان البروليتاريا العالمية، نازعاً من قاموسه اللغوي مفرداته الغربية لحساب منطق عالمي شامل. وكارل ماركس فيلسوف بأفق نبي، وهو وريث فكر اوراسي متعدد الأمشاج وصل إليه جاهزاً في صيغة فلسفة اوروبية حديثة كان هو، وزميله انجلز، واعيين تماماً لروافدها الاورو - خارجية، كما لبعدها الاوروبي الخاص. وهو بتمثله لمنطق البروليتاريا العالمية لم يعد قادراً على التكلم بلسان اوروبي. ويصعب علينا، في الواقع، ان نعثر على مكانة مصممة للغرب كمفهوم مركز - ذاتي في كتابات ماركس، وإنما نجد اهتماماً بمشكلات تطور الشرق يرتهن عنده بمسألتين: الثورة البروليتارية العالمية، وامتدادها المحتوم خارج اوروبا، ومسألة توفر الشروط اللازمة لذلك في الشرق، انطلاقاً من ظروفه الخاصة، ولكن بالاستناد الى المبدأ العام نفسه للثورة العالمية. وهذا المبدأ كان يمكن ان يقننه فيلسوف شرقي، لو توفرت البيئة الاجتماعية والفكرية التي انجبت كارل ماركس. لكن هذه البيئة لم تتوفر الا في اوروبا. ولو قدر لثورة رأسمالية ان تحدث في العالم الاسلامي، نتيجة لتطور الحضارة الاسلامية، او في الشرق الآخر نتيجة لتطور الحضارة الصينية او الهندية، لكان من المنتظر، إن لم يكن محتوماً، ان يظهر ماركس شرقي، يتكلم العربية او الصينية، او احدى لغات الهند، ليؤدي الدور ذاته الذي يؤديه ماركس الغربي اليوم في آسيا.

٣- الاستشراق الغربي زائل مع الاستعمار، زائل كمنظومة عقائدية احتاجها الغرب الاستعماري في سيرورته المديدة لاستعباد الشرق. لكن الغرب قد يتحول. وهو مثلما تمخض عن فيلسوف غير غربي في شخص كارل ماركس، يمكن ان يتمخض عن علم تاريخ جديد، أممي الآفاق. ولو اننا لا نملك التعويل على توقع كهذا في الامد القريب، او نطمئن الى أن غرارا امميا يمكن ان ينشأ في الغرب خارج تلك المنظومة التي حبكها الاستشراق دون ان يتأثر بها. في الحق إننا ما نزال ننتظر. ومن الادلة على هذا مشاركة المانيا الديمقراطية في الاحتفال بمرور خمسمائة عام على اختراع الطباعة، وكان المطلوب، أممياً، ان يكون عنوان احتفال كهذا، تشترك فيه دولة اشتراكية «مرور خمسمائة عام على انتقال الطباعة من الصين الى اوروبا» لكنها لم تفعل ذلك، لأنها لا تزال في بداية الطريق للتخلص من هيبة الاستشراق. ومع ذلك تبقى المانيا الديمقراطية اقرب الى الشرق من شقيقتها الرأسمالية، وأقدر على فهمه. وانما ينشأ الاشكال من سلطان الموروث، وفي اغلب الاحيان من قلة المعرفة.

يصدق هذا الحكم على الاستشراق السوفييتي، وهو حديث النشأة. ولا يتعارض ذلك مع ظهور مستشرق عملاق في بدايته هو كراتشكوفسكي، لانه، في الحق، ليس من هذه البداية، برغم ارتباطه بها زمنياً، وتأثره بها فكرياً، فهو نتاج حقبة فارطة، نتاج ثقافة برجوازية متبلورة، تامة النضج، وانما تسفيت كراتشكوفسكي بعد الثورة البلشفية. وقد أظهر تحت تأثير هذه الثورة قدرة خارقة على التحرر من موروثه الاستشراقي، فكتب بروح أممية عالية من خلال منهج اكاديمي صارم يضعه في عداد العلماء الأفذاذ. على أن كراتشكوفسكي لم يتناسخ فيمن بعده. فالاستشراق السوفييتي لم يرث الا القليل من تقاليد عصر الاستشراق، وإنما تطور ضمن خط الثقافة البروليتارية، وهي ثقافة ناشئة لم تناهز المائة عام بعد (الثقافة البرجوازية عمرها يزيد على الخمسة قرون). ولابد من مرور وقت قبل ان يظهر اكاديمي من طراز كراتشكوفسكي، ولو اننا لا نعدم ان نجد في علماء مثل ميخائيل بيوتروفسكي دليلاً على ذروة يكاد الاستشراق الاشتراكي ان يتناوشها بالتوازي مع النمو الصاعد في الفكر السوفييتي، المرشح، في المستقبل،

لان يأخذ مكان الاوج الذي تمترست فيه الثقافة الغربية ـ الرأسمالية . وان كنا لا نستطيع ان نتكهن بمسافة هذا المستقبل منذ الآن .

والاستشراق السوفييتي، والماركسي، بعامة، هو خلاف الغربي أممي النزعة، لكنه لا يخلو من سلبيات بقدر ما يتعلق بتاريخ الاسلام . وهذه السلبيات تعكس، الى جانب مرتكسات طور النشأة، تأثير مصادره الغربية . لكنها ناجمة على الاغلب من الحساسية ضد الدين . وتنعكس هذه في صعوبات تواجه عمل المؤرخ الماركسي، لاسيما الشرقي، منها ضعف الاحاطة بالعناصر المختلفة التي يتشكل منها الاسلام، وحضارته، وعدم القدرة على التمييز بين الادوار المختلفة للظاهرة الاسلامية الواحدة، واخيرا: استخدام الموقف الماركسي من الدين في معالجة الموضاعات الاسلامية، وفق منهج ميكانيكي مبسط احياناً . وبسبب المستوى الراهن للثقافة البروليتارية، يعجز الكثير من المؤرخين الماركسيين، لاسيما في الشرق، عن استيعاب الطريقة التي عالج بها ماركس وانجلز، ومن بعدهما بليخانوف ولينين، القضايا المتعلقة بالتاريخ وكيفية تحليلهم للمدلولات والمواقف المختلفة التي تتشكل منها اية ظاهرة تاريخية . وفي هذا الطور من حياة الثقافة البروليتارية يبدو هذا العجز طبيعياً . فالماركسية انبثقت من بيئة ثقافية راقية، وصادفت عبقريات نادرة فصاغتها على هذا المستوى الخلاق، إن في أصولها النظرية أم في تطبيقاتها المنهجية . وليس من الميسور للعمال والفلاحين، الذين استلموا هذه الفلسفة بعد استلامهم السلطة في الثورة البلشفية، وماتلاها من ثورات اشتراكية، أن يهضموها، أو يحسنوا استخدامها بالعبقرية نفسها ـ وهم نتاج بيئة مختلفة تماماً ـ قبل أن يمر العقل البروليتاري بالمخاضات والتجارب الكافية لانضاجه .

٤ـ من مداخلات ادورد سعيد الاستشراقية يمكننا ان نستشرف الاساس النفسي لظاهرة العمالة التي يضعها الكاتب الكبير في صيغة السالب والموجب، الانثى والذكر . والعمالة، وفقاً لهذه الصيغة، تأخذ اتجاهاً واحداً: من الشرق الى الغرب وليس العكس . فالغرب الامبريالي يجد له على الدوام عملاء شرقيين يحكمون بلدانهم بالوكالة عنه، وفق المنطوق الذي عبر عنه وزير نفط عربي في حديث مع مراسلين غربيين اواخر ١٩٨٠ جاء فيه: اننا نستنزف احتياطينا النفطي، وننتج اكثر مما نحتاج To Please You . والمخاطب هنا هو الغربيون . بينما لا نجد في الغرب عميلاً يحكم بلده لصالح دولة شرقية .

لكن مداخلة ادورد سعيد حول هذه المسألة تبقى في حاجة الى شيء من التخصيص، لانه تحدث عن الشرقي في اطلاقه فأوحى بشمولية المعادلة . والحق أننا لو أمعنا النظر في الفئات الاشد اندماجاً بالغرب لوجدناها في تلك الطبقات التابعة التي لم تلدها أم شرقية، وإنما نشأت نشأة الفسيل من ضلع الدوحة النامية في الغرب . إن عميل الغرب ـ الانثى الشرقية التامة البلوغ ـ هو البرجوازية بلواحقها المتنوعة والعديدة . الغرب لم يجد عاملاً شرقياً أو فلاحاً شرقياً مستعداً لخدمته، وإنما وجد التجار والمثقفين، وعامة الاغنياء الذين اعتدنا ان نسميهم برجوازيين أو ارستقراطاً؛ فهؤلاء، وحدهم الذين عرفوا الغرب، درسوه، استمتعوا بخيراته، قلدوه، أدخلوه في رؤوسهم، وفي بيوتهم، ولفوه على أجسادهم . اما العامل الشرقي، أو الفلاح الشرقي، فقد بقي لا يعرف من الغرب شيئاً، ولا يتمتع بشيء من فضلات حضارته، وهو بالتالي لم يحصل على المؤهل اللازم للاقتران به . ولكي يتضح الحال أكثر نقول إن البرجوازية الشرقية ليست في الواقع شرقية لانها، عدا اليابانية حصراً، لم تتكون نتيجة تطور محلي، وإنما تولدت في عجين الاقتصاد الغربي، وانحصرت وظيفتها في الوساطة بينه وبين المستهلكين في بلدانها . فهي برجوازية تجارية في

الأرأس، بينما البرجوازية الام صناعية، أي منتجة، والمنتج هو الاصل والوسيط تابع. وتصح هذه العلاقة على كل بلد شرقي لم يشهد ثورة صناعية. وأي بلد شرقي شهد هذه الثورة عدا اليابان؟ ولعلنا نبصر هنا ذلك السر المعروف وهو ظهور اليابان كمنافس شرقي وحيد للمتروبول الغربي، خارج عن عهدته، أي عن التبعية له، حتى يوم قصفها بالقنبلة الذرية لتستسلم للامريكان. ومع هذا، وبرغم حالة الاحتلال التي لا تزال اليابان ترزح تحتها، فإن اقتصادها الهائل قد ضمن لها قدراً كبيراً من الاستقلال، بل وعاد ينظمها شيئاً فشيئاً في سلك الدول الامبريالية الجديدة، بحكم كونها دولة رأسمالية عالية التطور.

إن الاستثناء الياباني بشموخه الذي ينحسر عنه النظر يؤكد هذه القاعدة: كون العميل الشرقي الصالح للاقتران بالغرب هو البرجوازية الشرقية ضمن اوضاعها الموصوفة انفاً. وهو ما يفسر في عين الوقت سراً اخر، معروفاً أيضاً، الا وهو الخروج التلقائي من تبعية المتروبول الامبريالي لاية دولة شرقية يحكمها تحالف العمال والفلاحين. ولدينا على ذلك مثال عربي في جمهورية اليمن الديموقراطية، وهي من الدول الشرقية القليلة التي تقع خارج دائرة الاستعمار. بينما نجد على العودة التلقائية الى المتروبول مع خروج السلطة من ايدي الفلاحين والعمال الى يد البرجوازية البيروقراطية في بلد شرقي عظيم، مثالا طرياً يرتهن بارتكاسات مأسوية ذات مخارج استخذائية، من ذلك النمط الفاضح الذي تقريناه في كتاب ادورد سعيد.

□

نقد ترجمة الكتاب

حظي كتاب الاستشراق بترجمان متميز عن تراجمة السوق، وفر له نصاً عربياً اميناً حافظ على اسلوب المؤلف وبلاسه الاكاديمية العالية. وقد سجل كمال ابو ديب، في هذه الترجمة الممتازة، خطوات جريئة في استخدام اللغة، واستثمار طاقاتها المكنونة، فاستحدث مفردات واصطلاحات ونحوتاً ثمينة تستحق ان تأخذ سبيلها الى الاستعمال من طرف الكتاب الذين غالبا ما تمنعهم أنانيتهم من استخدام مفردات يستحدثها غيرهم. إن مصطلحات من قبيل: اختصادي، اجتماسي، استجناب، سياستاريخي، وغيرها، تمتلك مشروعيتها في سياق الحداثة المنشودة للغة. وكنت اود لو مشى ابو ديب في هذه المرطقة الى آخر الشوط، لولا ان يفاجئني، بين صفحة وأخرى وقد استعاد الطربوش الذي نزعه في البدء. فبينما هو يتوسع في النحت، والتركيب، والاوزان الاشتقاقية المقوتة من الاكليروس اللغوي، إذا به يجاري اكثر مواضعاتهم تخلفاً وتحجراً. ثمة أمور لا يمكن الصبر عليها، بل هي أدعى الى الدهشة أن تصدر عن مثقف متنور مثل كمال ابوديب، وفيما يلي مسرد بها، آملاً أن يتلافاها في الطبعات الاخرى للكتاب لتحريره من آفات اللغويين التي ربما اساءت الى قراءته.

نبذ التعريب: أظهر كمال حساسية غريبة تجاه المصطلح الاجنبي المعرب، خلافاً لاصل ثابت في لغتنا لم يتحسس منه سوى بعض المتأخرين، من المحسوبين غالباً على بعض الجهات الرسمية المزايدة. وقد آلت به حساسيته الى تجاوز مصطلحات معربة استقرت في التداول منذ وقت بعيد، واستحداث مصطلحات يفتقر معظمها الى الدقة او يثير الالتباس. وهذه هي:

اورثوذوكسي: وضع له اصطلاح سني. ومع ان المفردتين مترادفتان، فإنها متباعدتان تماماً في الاستعمال، فهو يقول مثلاً: الاستشراق السني بدلاً من الاستشراق الاورثوذكسي، فيوحي للقارىء ان

هناك استشراقاً خاصاً بأهل السنة. ولو أننا أردنا أن نقول على هذا القياس: طائفة الروم السنة فسوف نسبب سوء فهم عظيم، قد يترتب عليه تراشق مدفعي. وهذه ورطة يتحاشاها حتى سدنة المجامع.

متروبول: ترجمة الى الوطن الام. وهذه الكلمة تقابل Mother land، ومعناها يختلف عن معنى المتروبول الذي يفيد المركز الامبريالي. وقد ركب هذا الاصطلاح من كلمتين لاتينيتين لاعطائه معنى متميزاً برغم أن الكلمتين تفيدان، قاموسياً، المعنى نفسه الذي تؤديه Mother land. ومن الجدير بالذكر ان معظم المصطلحات العلمية والفنية في اللغات الاوروبية مأخوذة على هذا الغرار من احدى اللغتين اللاتينية او اليونانية القديمة. ويرجع ذلك الى ضرورة مراعاة الفروق الدقيقة بين الاصطلاحات، أو ضرورة تحديد شخصية للمصطلح تربطه في الذهن بالمفهوم الذي وضع له. ويكتسب المصطلح شخصيته من تمايزه كلفظ اجنبي غير متداول، وقابل لأن يتضمن، إذا أطلق على معنى مستحدث، دلالة حاصرة على هذا المعنى. مثال ذلك اصطلاح Photograph وهو يوناني له مقابل في الانكليزية، اذ كان يمكن ان يقال Light Record، لكن المصطلح اليوناني استقل بالدلالة على المفهوم، لأنه غريب الى الفرد الانكليزي الذي يستعمله مفترضاً أنه يستعمل كلمة واحدة معبرة عن المعنى الذي اختصت به في التداول، دون أن يعرف في المعتاد أصله اللغوي. هذا فضلاً عن صلاحية المصطلح اليوناني للاشتقاق، وعدمها في المصطلح الانكليزي. .

فيلولوجيا: ترجمه الى فقه لغة. وهي ترجمة دقيقة، لكنها تثير اشكالات في النسبة. فهو يقول مثلاً: الإستثناء فقه اللغوي (ص ٩٧)، ويقول فقهاء لغويين (ص ٢٦٧) فيختلط الامر على القارىء الذي يعرف من الفقه معناه المألوف. ومن الافضل عندي استعمال فيلولوجي، وهو اصطلاح عالمي مأخوذ من اليونانية، على الاقل في حالة النسبة تحاشياً للالتباس.

ديناميكي، بيولوجي: ترجمها الى حيوي، كما استخدم حيوي مقابل Vital، وقد تخلص الكاتب الانكليزي من هذا الخلط باللجوء الى المصطلح الاجنبي فاستعمل ديناميكي من اليونانية، وهي ذات دلالة حاصرة على المعنى المقصود بها، والذي يختلف عن معنى Vital، كما استخدم لعلم الاحياء تركيب Bio و Logy من اليونانية ايضاً. ولو أنه تزمت كما فعل مترجمنا لتعذر عليه التعبير عن هذه المفاهيم المتفاوتة. ومن الجدير بالانتباه أن الكاتب الانكليزي يستطيع ان يستعمل Life Science بدل Biology لكنه كان سيواجه مشكلة الاشتقاق والنسبة كما واجهها المترجم. فالمصطلح الانكليزي غير قابل للتصريف لانه مكون من كلمتين متضايفتين لا تقبلان الاندماج. وينسحب هذا الاشكال على انثروبولوجيا التي ترجمها الى علم الانسان وصرفها تصريفاً ملتبساً فقال: «... مسردة من الاوصاف علم الانسانية» يقصد الاوصاف الانثروبولوجية.

طوطم: إصطلاح عالمي ترجمه الى نصب. والطوطم معبود من النبات او الحيوان أو غيرهما تتخذه القبيلة البدائية رمزاً لها. وهذا المعنى لا تؤديه كلمة نصب التي تقابل Monument. والطوطم من أصل هندي أحمر، لكن العلماء الاوروبيين نقلوه كما هو لأنه إذا ترجم قد يفقد دلالته الدقيقة.

بيروقراطية: ترجمها الى مكاتبية. والاصطلاح لا بأس به، لكن الكلمة المعربة شاعت وترسخت في الاستعمال، فلم تعد هناك حاجة الى ترجمتها. كما أن اصطلاح مكاتبية غير قابل للتصريف، فنحن نقول مثلاً بقرط أو برقط بقرطة وبرقطة، ولا نستطيع اشتقاق هذا الفعل من مكاتبية.

راديكالي: ترجمه الى جذري: وهما لا يتطابقان دائماً، فنحن نقول أحزاب راديكالية، وحقائق جذريه، ولكل منهما معنى ليس للآخر.

كليشة: ترجمها الى شعيرة. وهذه مرادفة منسك، وجمعها شعائر، أي مناسك، وطقوس. والمصطلح المعرب معروف، ومتداول، وهو يجمع جمعاً عربياً خالصاً: كليشة كلايش ولا يلتبس بغيره.

لبرالي: ترجمه الى تحرري، ولكل منهما معنى ليس للآخر. وقد شاع المُعَرَّبُ واستقر، وصرنا نصرفه فنقول، مثلاً،: لبرلة الدولة الفلانية، أي جعلها لبرالية.

التراجع عن النحت والتركيب

أظهر أبو ديب، هنا، تزمتاً خرج به على نحوته السابقة، وسحبه احياناً على مصطلحات مستقرة، فاستعمل: رأس المالية بدل رأسمالية، شرق الأوسطي بدل شرق أوسطي. ومنشأ هذا التكلف عدم التضحية بال التعريف، وتجنب تسكين المقطع الاول من الاصطلاح. وهذا ما فعله القدماء، ولسنا أفصح منهم، فقالوا ماوردي، ولم يقولوا ماء الوردي، والدارقطني ولم يقولوا دار القطني.... الخ.

ملاحظات لغوية اخرى:

- مشى المترجم على اصول الاكليروس المتعسفة في تقويم وتقييم، فاستعمل الاولى في مواضع تستدعي الثانية.

- وتكلف الاعراب في عبارات لاتستدعيه كقوله: «لاوزن لهم ولا حق فعلياً في الارض» (٢٨٦) وما كان اغناه عن فعلياً هذه. ومن الغريب ان يتزمت الى هذا الحد بعد أن قال تقنوي فاضاف الواو على غير قياس. وكنت قد اقترحت هذه الصيغة منذ وقت لانها أسوغ لفظاً من تقني. وفي اللغة العربية سوابق عديدة في الخروج على القياس لتسويغ الالفاظ.

- في ص ١٠٩ قال كمال: «وتحويلها الى معرفة رسمية مؤسسة، ترجمة للمفعول Institutionalized والاصح: مُؤَسَّسة، زنة مُمَنْطَقة.

- وجمع على المذكر السالم انساباً مجموعة في الاصل فقال: الاغريقيون، بدل الاغريق، والهندوسيون بدل الهندوس. ولا يخفى ما في ذلك من التطويل والتعقيد اللفظي.

- في ص ٨٩ قال: «كان أي رجل متوسط التعليم والذكاء». والمقصود «كان أي انسان» لان Man تفيد الرجل والانسان، وفي هذه العبارة لا يقصد بها الرجل حصراً. وهذه خطيئة فيلو - اجتماعية وقع فيها قدماء الانكليز بدمجهم الانسان في الرجل، على سبيل التجانس. وعلى المعربين تحاشيها بملاحظة سياق الكلمة ليعرفوا ان كان المقصود بها رجل أم انسان.

- في ص ٨٨ قال «أما جديدة كلية، أو معروفة كلية»، ولم أفهم إن كان يقصد جديدة ومعروفة كلياً، ام أن كلية صفة لها. ان كلية تشير حالياً الى المؤسسة التعليمية المعروفة، ويمكن الاستغناء عنها بمرادفاتها.

- في ص ٨٧ قال. «وزن قوة القوى الاجنبية». لماذا هذا الشح في المفردات؟ كان بوسعه ان يقول: وزن قدرة القوى الاجنبية أو وزن بأس القوى الاجنبية. دأب المعربون على استعمال قوة وقوي مقابل اكثر من خمس مفردات انكليزية تفيدها. وفي العربية من مرادفات قوة وقوي: بأس، مِرّة (وهي في العامية

العراقية، وقد وردت في شعر المتنبي) شدة، متانة، قدرة، شديد، متين، آيد، ممرور. ـ ولكل من هذه المفردات سياق يلائمها.

ـ في ص ٥٤ قال: «كما كتب ماركس في شهر برومير الثامن عشر. فـ «شهر» لا حاجة إليها. والكتاب متداول بعنوان: «الثامن عشر من برومير».

ـ في ص ٣٠٩ قال: «شهية جنسية قوية»، والشهية اختصها الاستعمال الحديث بالاكل والشرب، واختص الجنس بالشهوة، والاستعمال حاكم على القاموس فيما لا يسبب التباساً او ضيقاً في التعبير، فيكفي ان يقال: «شهوة قوية أو شديدة» توخياً للدقة والاختصار، وتجنبنا لتكرار ثلاث ياءات مشددة في جملة من ثلاث كلمات.

ـ في ص ٣١٢، ذكر «العربية الكلاسيكية» والمقصود العربية الفصحى، والاولى نقل حرفي عن الانكليزية.

ـ كتب المترجم Raphael Batai رفائيل بطي. والاخير صحفي عراقي رحل في اواسط الخمسينات، فهل هو الكاتب الصهيوني ـ امريكي الذي ألف كتاب Arab Mind؟ قطعاً لا، اظن المترجم يقصد رفائيل باتاي.

ـ وكتب Al-Iji العجي في مقتطف من برنارد لويس (٣١٢)، والمقصود هو الايجي نسبة الى ايجة من بلاد فارس. وهو لقب لبعض السالفين، ومنهم عضد الدين الايجي صاحب «المواقف» في الفلسفة وعلم الكلام. ولم يذكر برنارد لويس من يعنيه هنا جرياً على سنة المستشرقين في ابتسار الاحالات.

إشارات

(١) لهجة بغداد العربية ترجمة اكرم فاضل. بغداد ١٩٦٢.

لهجات بغداد هي: لهجة الرصافة ولهجة الكرخ وهما مشتركتان بين الشيعة والسنة.

لهجات الضواحي. وهي اربع ضواحٍ رئيسية: كرّادة مريم والكرّادة الشرقية والدهاليك والكاظمية. وسكان هذه الضواحي من الشيعة. ولهجات الضواحي الثلاث الأولى متقاربة لانها تشكل الحزام الريفي لبغداد، ويشترك اهلها في مهنة رئيسية هي الزراعة. اما لهجة الكاظمية فتختلف عنها تماماً وهي اقرب الى لهجة الرصافة. وسكان الكاظمية تجار وحرفيون والكيروس. والاختلاف بين لهجات الضواحي ولهجات المركز امر طبيعي في المدن الكبيرة، ولا علاقة له بتقسيمها الطائفي، وهو تابع في الاغلب لمهنة السكان. ومن هنا نجد السني الرصافي، والشيعي الرصافي، يتكلمان لهجة واحدة. بينما تختلف لهجة الشيعي الرصافي عن مشابهه الكرادي، ولهجة الشيعي الرصافي عن لهجة مشابهه الكاظمي. من الواضح ان ماسينيون انتهز الاختلاف الطبيعي في لهجات المدينة وضواحيها فوظفه لوضع خارطة طائفية للهجات، مستفيداً من المصادفة التي جعلت سكان الضواحي من الشيعة. أود مع ذلك ان أشير الى ان نصارى ويهود بغداد يتكلمون لهجة خاصة هي من بقايا اللهجة العراقية القديمة، التي لا تزال منطوقة في الشمال، وذلك بحكم انعزالهم وتقلصهم كاقليات مضطهدة. وماسينيون ذكر اللهجة الخاصة بنصارى بغداد، ولم يشر الى كونها جزءاً من لهجة الشمال التي تنطقه اقلية مسلمة.

(٢) وينبغي مع هذا عدم المبالغة في عواقب هذا التحسن. فلا تزال الفلسفة الصينية مطرودة من تاريخ الفلسفة العام، الذي لا يزال يسلك خطاً مستقيماً يبدأ من طاليس ويمر بلوكريتس والمدرسيين، ليتسلمه فلاسفة عصر النهضة، ويسلموه بدورهم الى فلاسفة اوروبا الحديثة. ويقوم مؤرخو الفلسفة الغربيون بتطهيرات متأنية، وموضوعية في الغالب، لاستبعاد العناصر المندسة من خارج تخوم أوروبا.